Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 18, Sep. 2021
Published online in September
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد الثامن عشر، سبتمبر 2021
Issn :2710- 4141

موقف المفكر جمال الدين الأفغاني من الاحتلال الأجنبي لمصر (1871–1879م)

زينب مصطفى دوشي
قسم التاريخ – كلية التربية – جامعة مصراتة
ahmeddosbe@gmail.com

الملخص:

يتناول هذا البحث حياة أحد كبار المفكرين، والمصلحين الدينيين، والسياسيين الإسلاميين، ويدعى جمال الدين الأفغاني، الذي كانت له عدة وقفات جادة من الأوضاع التي كانت قد سادت العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر، من ضعف وتفكك داخلي وتكالب استعماري من الخارج؛ عليه فقد ركز هذا البحث على دوره المناهض للاستعمار الأجنبي لمصر في عهد الأسرة الخديوية (عهد إسماعيل باشا "1863–1879") ، ومن بعده توفيق باشا (1879–1992).

استخدم جمال الدين الأفغاني أسلوب الوعظ والإرشاد لأبناء مصر، مذكراً إياهم بأنهم شعب حر لا يمكن أن يخضع للحكومة الضعيفة، ولا للاستعمار الذي جاء إلى مصر من أجل نهب خيراته.

The position of the thinker Jamal al–Din al–Afghani on the foreign occupation of Egypt (1871–1879)

Zainab Mustafa Doshi
Department of History–College of Education- Misurata University

Abstract:

This research deals with the life of one of the leading Islamic thinkers, religious reformers and politicians, named Jamal al-Din al-Afghani, who had several serious stances regarding the conditions that prevailed in the Islamic world in the nineteenth century, including weakness, internal disintegration and colonial assertions from abroad. Therefore, this research focused on his role in the foreign colonization of Egypt during the era of the Khedivial Dynasty during the reign of Ismail Pasha (1863-1879), and after him Tawfiq Pasha (1879-1992).

He followed in that preaching and guidance to the people of Egypt, reminding them that they are a free people who cannot submit to the weak

government, nor to the colonialism that came to Egypt in order to plunder its goods.

المقدمة:

يتناول هذا البحث موقف جمال الدين الأفغاني من الاحتلال الأجنبي لمصر (1871–1879)، يعدُ هذا المفكر واحد من أبناء بلاد الهند الذين عاصروا زمن الاحتلال الإنجليزي لبلادهم، وكانت له أدوار مهمة في حث أبناء وطنه من أجل توحيد صفهم في وجه العدو، كما كانت له عدة وقفات جادة في سبيل جمع المسلمين تحت راية واحدة، وذلك من خلال ما يعرف بحركة الجامعة الإسلامية. سواء في آسيا أو في أفريقيا، أو أوروبا من أجل صد المحتلين الذين أصبحوا يتكالبون على أراضي المسلمين؛ بواسطة خطبه التي طافت أرجاء بلاد المسلمين. ويُعدْ السيد جمال الدين الأفغاني، ممن أخذوا على عاتقهم مهمة الإصلاح الفكري عن طريق الإرشاد، والخطابات، التي احتوت مبادئ الفلسفة، وتحرير العقول من الخرافة، وإيجاد وحدة وطنية، ثم إسلامية؛ الغرض منها التخلص من المستعمرين الأجانب، وبالأخص في مصر التي قضى فيها ثمان سنوات، فكانت أخصب السنوات التي قضاها في الإصلاح، وعليه رغم مجهُداته الكبيرة في الفكر والإصلاح من خلال كتاباته، مثل: "روح البيان في الإنجليز والأفغان، والعروة الوثقى... وغيرهما"، كان منطقياً في تناول أفكاره الإصلاحية للوقوف على إشكالية: كيف كان موقف جمال الدين الأفغاني من الاحتلال الأجنبي لمصر، موضحا دوره السياسي من الحكومة المصرية، ثم النتائج التي ترتبت عن ذلك؟

لقد جاء هذا البحث في تمهيد، وأربع محاور رئيسية، أما التمهيد فيتناول: التعريف بشخصية جمال الدين الأفغاني، من حيث: مولده، ونسبه، وعلمه، وترحاله، وأبرز النماذج الوطنية التي دعا إليها جمال الدين في بلاد الهند ضد المستعمرين الإنجليز منذ سنة 1869م، واعضاً إياهم بضرورة مقاومة المستعمر، أما المحور الأول فيتمثل في دراسة أوضاع مصر قبيل عام 1871م، خلال حكم الخديوي إسماعيل، الذي استبد بحكمها، وفتح الباب أمام الأجانب للتدخل في شؤون البلاد عن طريق الديون، والمحور الثاني يحتوي على: موقف جمال الدين من أوضاع مصر خلال الفترة الزمنية من 1871–1876م، وقد ركّز الضوء على أهم أعماله، وأقواله المأثورة، بالأفكار الإصلاحية والوطنية، وعلى يده نمت الصحافة في مصر، أما المحور الثالث: فقد أوضح: شرارات الثورة المصرية، ودور الأفغاني منها (1876–1878م)، أما المحور الرابع: فقد تناول آثار دعوة الأفغاني في مصر من خلال تكوين ما يسمى بالحزب الوطني في آذار 1879م، وأبرز أقواله المأثورة، كما تضمنت هذه الدراسة على خاتمة تحتوي على أبرز النتائج التي توصلت إليها، وكذلك قائمة المصادر والمراجع.

أسباب اختيار الموضوع:

- فهو محاولة لوضع حلٍّ لمشكلة التناقض الكبير ما بين الحكومات الخاضعة للمستعمر وبين مطالب الشعوب، عن طريق الحركات الإصلاحية وعلى يد عدد من المصلحين، من أبرزهم السيد جمال الدين الأفغاني.
- توضيح الأعمال الإصلاحية التي قام بها جمال الدين الأفغاني لأجل توعية الناس فكريًّا وسياسياً، واجتماعياً، ودينياً.
- أيضاً رغبة في التعرف على هذه الشخصية الفذّة التي ربما وضعت بصمة للعالم الإسلامي، نمت حولها الأسس الفكرية، والثقافية، أو ما يسمى بالنهضة العربية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

أهمية البحث:

تتجلى أهمية هذا البحث في الكشف عن أثر أفكاره الإصلاحية التي أخذها عنه الكثير من كُتاب أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، ممن قامت وتطورت على أيديهم النهضة العربية، ولذا فإن دراسة تحليلية لأهم أفكاره السياسية من الأهمية بمكان، وللوقوف على مدى التزامه بتعاليمه الدينية، والثقافية، والفكرية، خاصة المنطق والفلسفة، ومحاولته تحرير العقول من الأوهام.

الهدف من البحث: يسعى البحث إلى تحقيق ما يلي:

1- بيان أثر التدخل الأجنبي في الدول الإسلامية، ومدى خطورته.

2- الوقوف على دور الحركة الفكرية للأفغاني، وأثرها في إيقاظ الشعور الوطني بمصر خاصةً، والعالم الإسلامي عامةً.

3- بيان مدى استجابة الشعوب الإسلامية لها.

حدود البحث:

البُعد التاريخي: من سنة 1871م إلى سنة 1879م، وهي فترة خطيرة جدا بالنسبة لمصر من ناحية، ولأهميتها القصوى للمفكرين حيث كانت بيئة مناسبة لمثل جمال الدين الأفغاني.

البُعْد المكاني: دراسة أوضاعه وأفكاره حسب رحلاته العلمية من موطنه بأفغانستان ثم بلاد الهند ثم إلى الأستانة، ثم مصر، وبصورة خاصة بمصر. (أي تنقلات واستقرار).

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 18, Sep. 2021
Published online in September
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد الثامن عشر، سبتمبر 2021
Issn :2710- 4141

منهج البحث:

بعد جمع المادة، ودراستها، وانتقاء المعلومات المهمة التي تخدم البحث فقد كان المنهج المتبع في هذه الدراسة هو: منهج البحث التاريخي باستخدام أسلوب تسلسل الأحداث التاريخية، وربطها وتحليلها.

التمهيد:

خلال القرن التاسع عشر أصيب العالم الإسلامي بضعف وتفكك، في وقتٍ كان فيه الغرب يتقدم ويتطور ويبحث عن ميادين استعمارية، فكان العالم الإسلامي محطته الأساسية، وقد نجح هؤلاء المستعمرين في تثبيت أقدامهم في الشرق الإسلامي (بلاد الهند)(*) (الحسيني، د.ت، ص 170)، من خلال بث الفتن والمؤامرات بين أبنائها، ثم في مصر بواسطة إخضاع الحكومة الخديوية لهم. وفي الوقت نفسه قيض الله لهذه الأمة عدد من المصلحين الدينيين والسياسيين لإصلاح أوضاعها، ولنشر الوعي الفكري والقومي في أوطانها، ولعل من أبرزهم "السيد جمال الدين الأفغاني".

مولده: ولد في قرية أسد أباد في أفغانستان(*) (الشيخ، 2004، ص115) عام 1838 (الأفغاني، عبدة، 2002، ص 60)، وتوفي في الأستانة(**) (صابان، 2001م، ص15) عام 1315هـ-1897م (المغربي، د.ت، ص 11). فهو ينتسب إلى نسب شريف يجمع ما بين الشرف وعزة السيادة (أمين، د.ت، ص 212)، وكما كانت له عدّة رحلات علمية تلقى فيها العلم، وتعلم اللغات الأوروبية، خاصةً اللغة الإنجليزية في بلاد الهند، وحج إلى مكة، وطاف البلاد الإسلامية ليكتسب عاداتها، وأخلاقها، واختبار أحوالها الاجتماعية والسياسية (رضا، 2006، رمز "و").

(*) بلاد الهند: أو ما يعرف بشبه القارة الهندية فهو عالم قائم بذاته؛ يعزله عن بقية قارة أسيا في الشمال جبال الهملايا الشامخة التي تعرف سقف الدنيا، أما سكانها فهم خليط من الجنسيات أبرزهم: البنجاب، والبنغال، والبلوخ، وغيرهم، انظر: الشيخ، رأفت غنيمي، وآخرون، تاريخ أسيا الحديث والمعاصر، عين للدراسات والبحوث والدراسات الإنسانية، 2004، ص81-82.

(*) أفغانستان: تقع عند الركن الشمالي الشرقي من الهضبة الإيرانية الآسيوية تحيط بها كل من إيران، والباكستان، وتركستان الغربية، ومعظم أراضيها جبلية وعرة، وسكانها خليط من الجنسيات: العرب، والترك، والفرس، والهنود، والمغولية.

(**) الأستانة: الاسم القديم لإستانبول ويعني عتبة الباب، والمركز، والتكية الكبيرة.

(***) هو وليم أورت غلاستون، ولد بلفربول في 29 سبتمبر سنة 1908م ودرس في مدرسة أكسفورد الجامعة، وتولى عدة مناصب في الدولة لعل أبرزها رئيسا لمجلس النواب عام 1865م.

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 18, Sep. 2021
Published online in September
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد الثامن عشر، سبتمبر 2021
Issn :2710- 4141

ثم رجع إلى أفغانستان، لكنه هجرها بعد انقلاب 1869م. (المحافظة، 1987، ص 82)، ورحل إلى الهند التي أخضعت فيها ثورة 1857م (الندوي، 2006، ص 78)، على أيدي القوات الإنجليزية (موسى، 2012، ص 11، 12)، فأخذ يبث فيهم الروح الوطنية والقومية ضد الاحتلال الأجنبي، فكانت من أهم مقولاته المأثورة في هذا المجال حينما خاطب أهل الهند: "يا أهل الهند، وعزة الحق، وسر العدل، لو كنتم، وأنتم تعدّون بمئات من الملايين ذُباباً مع حاميتكم البريطانية ... ، لو كنتم مئات الملايين كما قلت ذُباباً، لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى، ويجعل آذان المستر غلادستون[*] (صروف، 2017، ص 60، 61)، وقراً". (قلعجي، د.ت، ص 35)، وهذا النص يدل على الروح الوطنية التي أراد السيد جمال الدين إحيائها عند الهنود لغرض دفع حميّتهم الوطنية ضد الاحتلال المغتصب.

إلاّ أنه حينما أصبح الوضع لا يُطاق ببلاد الهند، قامت الحكومة الهندية بترحيله إلى منطقة السويس بمصر سنة 1869م، وظل فيها مدّة أربعين يوماً (قلعجي، د.ت، ص 36)، ثم رحل إلى الأستانة (صابان، 2001، ص 15)، واستقبل استقبالاً حاراً، والتف حوله العلماء والمهتمون بالعلم، وأخذ يلقي مقولاته العلمية والفكرية محاولاً تخليص العالم الإسلامي من التواكل، والفكر، والخرافة، إلاّ أنه لم يدم بقاؤه طويلاً فيها بسبب مُعاداة شيخ الإسلام له (حسن أفندي)، ثم رحل إلى القاهرة في آذار عام 1871م (الأفغاني، عبدة، 2002، ص 63)، وفيها اتبع الأفغاني نفس الطريقة التي انتهجها في بلاد الهند و الأستانة، وهي إيقاظ الروح الوطنية ضد المستعمرين الغزاة؛ إلا أن الوضع في مصر مختلف عما كان في الهند والأستانة، فقد استمر وجوده لمدة ثماني سنوات كانت من أخصب فترات دعوته الإصلاحية.

المحور الأول: أوضاع مصر قبل سنة 1871م:

سادت في مصر منذ بداية تولي الخديوي إسماعيل باشا[1*]، أوضاع سياسية واقتصادية و إدارية صعبة، بسبب التدخل الأجنبي الذي وضع يده على مؤسسات الدولة، متحججا بالديون الأجنبية التي صرفتها الأسرة الخديوية على إعمار البلاد، و البذخ العائلي.

([1]) إسماعيل باشا: وكان عمره، عند ارتقائه السدة المصرية، اثنين وثلاثين عامًا وسبعة عشر يومًا، فكان، والحالة هذه، في ريعان حياته وظهر أيامه :ناضج الفكر والتصور، فهو ابن إبراهيم باشا وحفيد مُحَمَّد علي باشا، للمزيد ينظر: الأيوبي، إلياس، تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا من سنة 1863–1879، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012، ص53–54.

عليه جاء هذا المحور في جانبين هما:

الجانب الأول: مظاهر نظام الحكم المصري

عانا الشعب المصري من ظلم حكومته سواء من الأسرة الحاكمة المتمثلة في الخديوية أو مساعديها، الذين لم يشعر أحد منهم أن لهم شأناً في مصالح البلاد؛ لأن الخديوي شكل مجلسا صوريا وضع تحت سلطته المطلقة خدمة لمصالحه دون النظر إلى مطالب الشعب (رضا، 2006، ص 36). نستنتج من هذا أن الشعب والمجلس يشعرون بأن الإرادة المطلقة هي التي كانت ولا تزال تتصرف في آرائهم، و هذا يدل على حال الشعب المصري المقهور، رغم تفتّح عائلة مُحَمَّد علي باشا، إلاّ أنها مارست الظلم والاستعباد على الرعية الذين يُساقون حسب رغبة حُكامهم.

إلى جانب ذلك عانا الشعب المصري من الكبت في حرية القول، كما اختل ميزان العدالة في المجتمع المصري، وكان من أكبر أسباب الشكوى ما كان يُعانيه الناس من عدم الأمن على الأرواح والأموال، فلا قانون يحمي الفلاح من الأوامر الظالمة. (صبري، 1996، ص 138، 139)، وفي هذا وجد الأفغاني التربة الخصبة لنشر أفكاره الإصلاحية، فكانت له عدّة مواقف مدوِّية للعالم الإسلامي (المغربي، د.ت، ص 9، 10)–كما أشرنا إليها خاصةً في بلاد الهند.

الجانب الثاني: مظاهر النظام الاقتصادي

يتعلق بالسياسة الاقتصادية التي اتخذها إسماعيل باشا منذ عام 1864–1869م قاصداً منها نهضة مصر في كافة المجالات مثل: الزراعة، والتجارة، والصناعة، والإدارة، والصحة، والتعليم، والجيش، والأسطول، كذلك عمل على الاستقلال بمصر. (شقرة، 2007، ص 243)، أي أنه أراد الانفصال عن الدولة العثمانية؛ لغرض تحويل مصر باريس الشرقية، وهذا دليل على أنه متأثر بالثقافة الفرنسية.

إن الخديوي إسماعيل لجأ إلى الاستدانة من المرابين الأجانب (التجار). (أمين، د.ت، ص 63)، فكبل نفسه، والشعب المصري بقيود الديون ففرض على الشعب المصري العديد من الضرائب لإعادة تلك الديون والتخلص من المطالب الأجنبية.

مما زاد الأمر تأزماً حينما سمح إسماعيل باشا للإنجليز سنة 1870م، من خلال شركة (جرنفلد) تنفيذ مشروع ميناء الإسكندرية، والقيام بأعمال إصلاح دفع فيها مبلغ (2.6) مليون جنيه، في حين أنه لم يكلف سوى (1.4) مليون جنيه، كما باع أسهم قناة السويس لإنجلترا. (مورو، د.ت، ص 277)، وغيرها كي يسرف الأموال في أعمال النهضة، والترف داخل قصره. وهذا دليل على أن حكمه متدهور، بحيث لا يوجد مجلس نواب يُحاسبُونه على أعماله.

المحور الثاني: موقف جمال الدين الأفغاني من أوضاع مصر خلال الفترة (1871–1876م):

الجانب الأول: دخول جمال الدين إلى مصر في عام 1871م

نتيجة لما تم توضيحه، فإننا وجدنا أنفسنا بحاجة إلى شخصية إصلاحية، لتضع حدًّا لذلك الحال، والمتمثلة في "السيد جمال الدين الأفغاني"، الذي وصل إلى مصر في مارس1871، ورتّب له رياض باشا معاشاً (أحد أعضاء الحكومة المصرية). (حوراني، د.ت، ص 138)، رغم أن السيد جمال الدين معروف بأفكاره الإصلاحية، التي ربما تكون في غير صالح الحكومة؛ ولأن الحكومة المصرية كانت تسعى للانفصال عن حكومة الأستانة، التي أخرجت السيد جمال الدين من أراضيها، فكان استقبال مصر لجمال الدين دليل على اهتمام الخديوي بالتعليم، وحتى يظهر عكس ما أظهرته حكومة الأستانة من ترحيب له في بداية الأمر.

الجانب الثاني: دوره الإصلاحي ونشاط الصحافة على يده في مصر

في مصر أخذ يبث تعاليمه الإصلاحية، فالتف حوله طلاب العلم والمهتمين بذلك، فظهرت على يده بيّنة استضاءت بأنوار العلم، والعرفان، وارتوت من ينابيع الأدب والحكمة، وتحررت من قيود الجمود والأوهام، وبفضله خطا فن الكتابة والخطابة في مصر خطوة واسعة. (الرافعي، د.ت، ص 178).

كما كان لجمال الدين الأفغاني دور في تعليم هؤلاء الشبان المنطق والفلسفة، فكان من أبرزهم الشيخ مُحَمَّد عبده، فانخرط هذا الشيخ مع نوابغ من المصريين مثل: "سامي البارودي" والشاميين مثل: "أديب إسحاق" ممن تعلموا على يد الأفغاني في سلك تلامذته، فاقتبسوا منه العلم والفلسفة وصاروا روحاً حيَّة. (زيدان، د.ت، ص 322)، وكان من أبرز ما توصلوا إليه من خلال هذه التعاليم هو تنبيههم للسعي إلى وحدة

الشعوب الإسلامية، والمطالبة بدستور يحدّ من سلطة الحاكم، ولعل أبرز ما دعا إليه أيضاً، تشجيعهم على محاربة الاستعمار، كما شجعهم على الكتابة، وإصدار الصحف، حيث ازدهرت الصحافة في مصر على يديْه، لأنه كان أول من دعا تلاميذه إلى نشر أماليه وأحاديثه، وشروحه، منسوبة إليهم ليصنع منهم كُتّاباً، وأُدباء، وقادة للرأي العام. (عمارة، 1988، ص 56).

حاول الأفغاني من خلال بعض أقواله المأثورة أن يُخلص العقول من الأوهام، حينما قال الشيخ مُحَّد عبده: "بأن الأفغاني، قد وجه عناية كبيرة وحمل تلامذته على العمل في الكتابة، وبرعوا فيها". (عبدة، 1993، ص 342)، وبموجب ذلك استضاءت البصائر، وتخلصت العقول من الأوهام. كما وجه كل اهتمامه لتعليم الشبان أي الأبناء المتلهفين لسماع أقواله ونصائحه، وعلى أيديهم نشأت نهضة مصر والشام في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي مثل: عبد الرحمن الكواكبي، الذي دعا إلى الإصلاح، والتخلص من حكم الاستبداد في كتابيه: (أم القرى، وطبائع الاستبداد).

ولعل من أهم الجرائد التي ظهرت خلال فترة وجوده في مصر هي: جريدة "مصر" وكان للأفغاني دور في ازدهارها من خلال مقالاته التي كتبها بنفسه، وذلك بعد أن شجع أديب إسحاق على إنشائها. وكذلك جريدة "التجارة" باسم إسحاق وسليم النقاش معاً، و "إمرأة الشرق" التي أصدرها تلميذه إبراهيم اللقاني.

نستنتج مما قرأت أن الأفغاني كان يدرك أن حسم قضية مصر لن يكون في نهاية الأمر إلاّ باستنهاض شعب مصر، وفي كل ندواته، ومحاضراته كان يوجه حديثه مباشرة للمصريين لأن يقفوا من أجل حقوقهم ضد طبقة المترفين من الحكومة، وأن يعوا أطماع المستعمر الأوروبي التي كان يراها تهدد كل مستقبل مصر. (الأفغاني، عبدة، 2002، ص 64، 65)، أيضاً من أبرز وأهم الصحف التي كانت لها صدى بعيد المدى في الأوساط الإسلامية عامة والمصرية خاصة، هي صحيفة: "روح البيان في الإنكليز والأفغان"، والتي أوضح فيها الأفغاني، التاريخ الإنجليزي الطويل قبل وصولهم إلى قمة الانتصارات، وكيف تمكنوا من تثبيت أقدامهم في بلاد الشرق الإسلامي، منافسين بذلك جيرانهم الذين سبقوهم في استعمار المنطقة. (الأفغاني، 2012، ص 6 – 8).

نلاحظ من ذلك أن للأفغاني دوراً كبيراً في زرع الروح القومية العربية، فمن جهة دعا إلى ضرورة محاربة الحكومة المستبدة، ومن جهة أخرى دعاهم إلى محاربة المستعمرين الأوروبيين الذين جاءوا إلى نهب خيرات

مصر، واحتلالها. والحق أنه كان لهذه الصحف والجرائد دور فعالا في تطوير الحياة الفكرية، والسياسية في مصر، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كما كانت المحرك الأساسي لهم بالثورة ضد الاستبداد، والاستعمار.

ولعل من أبرز المواقف التي أشعلت السخط المصري على الحكومة، والاستعمار الأجنبي، ما قاله الأستاذ بهاء الدين: "كان جمال الدين الأفغاني يجلس كل مساء في مقهى "متاتيا" يوزع السعوط (الشوق) بيمناه، والثورة بيسراه...". (بهاء الدين، 1991، ص 14، 15)، حيث كان لهذه الجلسة الحادة في الأقوال والأفعال ما يُشجع المصريين على الثورة، والسخط من الحكومة الضعيفة الخاضعة للأجانب.

المحور الثالث: شرارات الثورة المصرية، ودور الأفغاني فيها (1876–1878م):

و جاء هذا المحور في جانبين أساسيين هما:

الجانب الأول: الأسباب التي أدّت إلى تلك الشرارات

نلاحظ مما سبق طرحه معاناة الشعب المصري من ظلم واستبداد الحكومة الخديوية الخاضعة للحكم الأجنبي، الذي كبّلها بقيود الديون.

ولعل من أبرز مؤشرات ذلك التدخل الأوروبي، هو إرسال بعثة (كيف) Cave سنة 1875م لفحص مالية مصر، واقترحت لضرورة إصلاحها، إنشاء مصلحة للرقابة على ماليتها، وأن يخضع الخديوي لمشورتها، ولا يعقد قرضاً إلاّ بموافقتها. (أمين، د.ت، ص 63)، وأنشأت البعثة صندوق الدّين سنة 1876م الذي بتسليم المبالغ المخصصة للديون من المصالح المحلية، فكانت حكومة أجنبية داخل الحكومة المصرية، كذلك أنشأت نظام الرقابة الثنائية في هذه السنة أيضاً، حيث يتولى الرقابة على المالية المصرية مراقبان: أحدهما إنجليزي لمراقبة الإيرادات العامة للحكومة، والآخر فرنسي لمراقبة المصروفات، وأنشئت لجنة مختلطة لإدارة السكك الحديدية، وميناء الإسكندرية، وجاءت لجنة تحقيق عليا أوروبية سنة 1878م لمراعاة مصالح الدائنين الأجانب، وتدبير المال اللازم لوفاء الأقساط المطلوبة لهم. (أمين، د.ت، ص 63).

ولجأ إسماعيل باشا إلى الاستيلاء على جميع أموال خزانة مصر؛ بما في ذلك أموال الأوقاف الخيرية، وخزائن بيت المال العام، وبلغ ما أخذه من هذا الباب حوالي 537000 جنيه. (أبو ريّة، 1966، ص

80)، كما أن الباب العالي لم يُبد أي موقف، اتجاه هذا التدخل الأجنبي (تدخل بريطانيا وفرنسا) في شؤون مصر، بخاصةً ما يتعلق بفرض الرقابة المالية. (مصطفى، 1967، ص 190). وهذا راجع إلى موقف الخديوي من الدولة العثمانية، حيث لم يأخذ مشورة السلطان عبد الحميد الثاني بينما انفرد بمشروعه.

الجانب الثاني: دور الأفغاني في الثورة المصرية

يتمحور دور الأفغاني في حضّ تلاميذه، وتنبيههم إلى مضار التدخل الأجنبي، والرقابة الأجنبية، قال سليم العنجوري– نقلاً عن السيد مُحَمَّد رشيد رضا–: "إنه خلال سنة 1878م، زاد مركزه خطراً لأنه تدخل في السياسة، وأخذ يقرب العوام منه ويقول لهم في كلامه ما معناه: "إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد، وربيتم بعجز الاستبداد، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة حتى اليوم، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور وتنزل الخسف والذل، وأنتم صابرون بل راضون..."، ثم أشعل فيهم فتيل الثورة، بقول آخر: "هبوا من غفلتكم، أصحوا من سُكرتكم، انفضوا عنكم غبار الغبارة والخمول، كباقي الأمم أحراراً سعداء، أو موتوا مأجورين..."."(رضا، 2006، ص 46). فكان لهذه الأقوال دور في تشجيع المصريين لطلب الحرية، ومقاومة المستعمرين.

ولعل من أبرز أدواره السياسية، حينما أدرك دور "التنظيم"، وأهميته، فلهذا فقد وجد ضالته في: "الحركة الماسونية"[*]، التي ترفع شعارات الثورة الفرنسية: الحرية، الإخاء، المساواة، ومن أهدافها مواصلة النضال لتحقيق تلك المبادئ؛ إلاّ أنه بعد فترة قصيرة انفصل عنها حيث وجد من الخمول والجمود اتجاهه، كما اكتشف الأفغاني أنها على صلة بالاستعمار الأوروبي، ولهذا انفصل عنها، ثم أنشأ مجلسا وطنياً تابعاً للشرق الفرنسي بلغ عدد أعضائه ثلاثمائة عضو من نخبة المفكرين المصريين.(عمارة، 1988، ص 58).

---

[*] جاءت كلمة الماسونية من كلمة (Ma son) التي تعني البناء والمعمار، ويضاف لها كلمة (Free) بمعنى حرّ، فأصبحت البناء الحرة Free Mason، ولها ممارساتها وطقوسها. انظر: عبدالقادر، عصمت برهان الدين، تغلغل الماسونية في الدولة العثمانية 1839–1918م، كلية الآداب – جامعة الموصل، د.ت، ص207.

[**] الإخوان: يرجع تأسيس جماعة الإخوان إلى حسن البنا عام 1928م في مصر حيث كان يجتمع بعامة الناس في المقاهي، ويتكلم معهم بأسلوب علمي، مستخدما في ذلك أسلوب الأفغاني، حتى قصده ذات يوم عدد قليل من العمال، وطلبوا منه إنشاء جماعة تعمل من أجل الدين ويكون هو زعيمها وقائدها.

[***] الامتيازات الأجنبية: هي مجموعة الحقوق التي تمنح للدول الأجنبية من قبل دول أخرى.

Scientific Journal of Faculty of Education, Misurata University-Libya, Vol. 2, No. 18, Sep. 2021
Published online in September
المجلة العلمية لكلية التربية، جامعة مصراتة، ليبيا، السنة السابعة، المجلد السابع، العدد الثامن عشر، سبتمبر 2021
Issn :2710- 4141

المحور الرابع: آثار دعوة الأفغاني في مصر: وجاء أيضا في جانبين هما:

الجانب الأول: تأسيس الحزب الوطني وموقف الحكومة المصرية منه

بعد انفصال السيد جمال الدين الأفغاني عن المحفل الماسوني، وتكوينه مجلسا وطنياً في آذار (مارس) 1879م، فإن أول عمل قام به هو تصييّر الإخوان(**)(الوصيفي، 2012، ص14-15) إلى عدّة شُعب. (الأفغاني، 2002، ص 40)، فشعبة للحقانية، وأخرى للمالية، وثالثة للأشغال، ورابعة للجهادية، فكان لكل منها مهمة حسب وزاراتها، وتنظر في المظالم ووجوب إصلاحها. (أمين، د.ت، ص 74).

وقد وضع جمال الدين للحزب الوطني برنامجاً يتلخص في: (قلعجي، د.ت، ص 56، 57):

1. إبقاء مصر على علاقتها الودية مع الباب العالي، على أن تحتفظ باستقلالها التام.
2. إلغاء نظام المراقبة الثنائية.
3. إلغاء الامتيازات الأجنبية(***) (العريض، 2012، ص 294)، والمساواة بين المصريين والأجانب في دفع الضرائب، والخضوع للقوانين.
4. تعميم ونشر الثقافة.
5. تكوين شورى النواب.
6. إطلاق حرية المطبوعات، والحريات السياسية.

أما موقف الحكومة من ذلك، خاصةً بعد أن عقد النواب أول جلسة لهم مطالبين فيها تحقيق تلك النقاط، فتمثل في الرفض لمطالبهم، وانتهى الموقف باستقالة رئيس الوزارة المصرية "نوبار باشا". (مورو، د.ت، ص 164)، وذلك تحت ضغط الوزيرين الأجنبيين (الفرنسي والإنجليزي)، يوم 19 شباط (فبراير) 1879م، وبقيت البلاد دون وزير حتى قام الأمير (توفيق) بتعيين وزير آخر. (قلعجي، د.ت، ص 56، 58).

ومن أهم المواقف التي اتخذتها الحكومة برئاسة رياض باشا هو إصدار قرار بحل مجلس الشورى، لأنه في حالة استمرار أعمال هذا المجلس ستقف عائقاً أمام المصالح الأوروبية، بينما رد أعضاؤه بالإصرار على موقفهم، وإقرار مبادئهم خاصة تلك التي تتعلق بإطلاق الحريات مثل حرية القول والخطابة، ومع تأزم الموقف

السياسي، أيضاً صاحبه تأزم الوضع الاقتصادي مثل: كثرة الضرائب على الفلاحين.(قلعجي، د.ت، ص 60)، وغيرهم من الطبقات الأخرى مما أدى إلى هياج الشعب المصري والقيام بثورة ضد الاستعمار الأوروبي.

أما الجانب الثاني: موقف جمال الدين من الأمير توفيق باشا:

آلمت هذه الحالة السيد جمال الدين فكان من أشهر مقولاته المشهورة في هذا الخصوص؛ ووجهها للفلاحين خاصةً: "أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمق ...، فلمَ لا تشق قلب ظالمك؟".(قلعجي، د.ت، ص 60)، وعلى أثر ذلك انتشر التذمر والسخط، وترتب على ذلك انقلاب على الخديوي إسماعيل، وتنصيب توفيق في يونيو 1879م، الذي كان على علاقة ودية مع السيد جمال الدين، حتى أنه قد استدعاه إلى قصر عابدين، وقال لجمال ما معناه: "إنني أحب كل المصريين، ويسرني أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرقي؛ ولكن مع الأسف فإن أكثر الشعب خامل، وجاهل، لا يصلح أن يلقي عليه ما تلقُّونَه من الدروس...". (الأفغاني، 2002، ص 43)، قال له جمال مُجاوباً: "ليسمح لي سمو أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص، إن الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده، ولكن غير محروم من وجود العالم والعاقل، فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري وأفراده، ينظرون به لسموّكم ". (الأفغاني، 2002، ص 94).

وبعد ذلك عندما خرج جمال الدين من القصر، أخذ يلقي خطاباته وأقواله في الحزب والمجلس الوطني بأقوال تستفز الخامل وتوقظ العاقل، ولعل من أشهر مقولاته: "أيها الإخوان، إن القوة النيابية لأي أمة يجب أن تنبثق من الأمة نفسها، لا أن تكون حكومة أجنبية أو موالية للأجانب فتهضم حقوق الشعب. وهكذا كانت أقواله المؤثرة قد حرّكت شعور الوطنيين، وانتشرت الثورات، وخشيت بريطانيا على مصالحها، وطالبت من الخديوي توفيق باشا إخراجه خارج البلاد المصرية، وتم ذلك بالفعل سنة 1879م قاصداً بلاد الهند. (الأفغاني، 2002، ص 95، 96).

خاتمة البحث: نستنتج مما سبق دراسته ما يلي:

1. تمكن جمال الدين الأفغاني، من خلال رحلاته العلمية أن يكتسب عادات وتقاليد الشعوب التي زارها، ويتحقق من مدى أخلاقياتها السياسية والاجتماعية، وعلى ضوء ذلك أراد أن يطبق أفكاره الإصلاحية.
2. حاول جمال الدين أن يستغل تلك الرحلات في جانب مهم وهو الجانب التعليمي، لتخليص العقول من الجهل والوهم.
3. أراد أيضاً أن يحول العالم الإسلامي المفتت على نفسه الخاضع للاستعمار إلى قوة شاملة لا تخضع للأعداء.
4. رغم عدم استقراره؛ إلا أننا لاحظنا من خلال هذه الدراسة أن عمله تميز بميزتين: الأولى وطنية يدعو فيها الوطنيين إلى مقاومة المحتلين كما حدث في بلاد الهند عام 1869م، ثم في مصر 1871-1879م، والثانية إصلاحية: يدعوا فيها إلى إصلاح الأوضاع السياسية والفكرية، فانتشرت أفكاره بشكل واسع في مصر، لطول المدة التي عاشها فيها، وكذلك تقبل المصريين لهذه الأفكار.
5. ازدهرت الترجمة، والصحافة حتى أصبحت أساس من أساسيات النهضة العربية.
6. إيقاظ الروح الوطنية عند المصريين فاشتعلت الثورة والتي سميت بالثور العُرابية 1882م على يد أحمد عُرابي، وانتهت بتدخل الإنجليز، واحتلالهم لمصر.
7. كان لجمال الدين الأفغاني، دور كبير في إصلاح حال المسلمين، وتحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة السلف، كما كان له دور في إيقاظ الأمة، كي تحرر وطنها من المستبدين، والمستعمرين، وفكرها من الخرافة والجمود، وعليه فإن كتاباته، و أماليه، قد مثلت – ولا تزال – الأسس والبواعث للمشروع الإسلامي لإنهاض الشرق الإسلامي، وإصلاح دين الإسلام لتتحدد به دُنيا المسلمين.

قائمة المصادر والمراجع:

1- أبو ريّة، محمود، *جمال الدين الأفغاني (تاريخه ورسالته ومبادئه)*، مُحَمَّد توفيق عويضه (أشرف على إصداره)، د.ن، 1286هـ-1966.

2-أمين، أحمد، *زعماء الإصلاح في العصر الحديث*، دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، د.ت.

3-ـــــــــ، *فيض الخاطر*، ج5، القاهرة – جمهورية مصر العربية، د.ت.

4- الأيوبي، إلياس، *تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا من سنة 1863-1879*، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012.

5- بهاء الدين، أحمد، *أيام لها تاريخ*، دار الشروق، ط3، 1411هـ-1991م.

6- حوراني، البرت، *الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1739م*، كريم عزقول (ترجمة)، النهار للنشر، بيروت – لبنان، د.ت

7- الحسيني، جمال الدين، *تاريخ اجمال إيران وتتمة البيان، في تاريخ أفغان والبيان في الإنجليز والأفغان*، سيد هادي خسرو شاهي (إعداد وتقديم)، شروق، مركز بربرسيهای إسلامي، كتخانة على إيران، د.ت.

8- ـــــــــ، و عبده، مُحَمَّد، *العروة الوثقى*، سيد هادي خسرو شاهي (إعداد وتقديم)، القاهرة، ط1، 1423هـ-2002م.

9- ـــــــــ، *البيان في الإنجليز والأفغان*، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة – جمهورية مصر العربية، 2012م.

10- ـــــــــ، *خاطرات الأفغاني آراء وأفكار*، مُحَمَّد باشا المخزومي (تقرير)، سيد هادي خسرو شاهي (إعداد وتقديم)، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 1423هـ-2002م.

11- الرافعي، عبد الرحمن، *عصر إسماعيل*، ج2، د. ن، ط4، د.ت.

12-رضا، مُحَمَّد رشيد، *تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ مُحَمَّد عبده (1266-1323هـ=1849-1905م)*، ج1، ق1، دار الفضيلة، ط2، 1427هـ-2006.

13- زيدان، جرجي، *تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر*، ج1، القاهرة، جمهورية مصر العربية، د.ت.

14- شقرة، جمال، *الدولة الحديثة في مصر (2) (1863-1879م)*، من كتاب: يونان لبيب رزق، المرجع في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2007.

15-الشيخ، رأفت غنيمي، *تاريخ أسيا الحديث والمعاصر*، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 2004، ص81-82.

16- صابان، سهيل، *المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية*، مراجعة: عبد الرازق محمد حسن بركات، مكتبة الملك فهد الوطنية السلسلة الثالثة(43)، الرياض، 1421هـ/2001.

17- صبري، محمد، *تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث*، مكتبة مدبولي – القاهرة، ط2، 1417هـ-1996.

18-صروف، يعقوب، *فكتوريا ملكة الإنجليز وإمبراطورة الهند*، مؤسسة هنداوي، مصر، 2017/1/26.

19-عبد القادر، عصمت برهان الدين، *تغلغل الماسونية في الدولة العثمانية 1839-1918م*، كلية الآداب – جامعة الموصل، د.ت.

20- العريض، وليد صبحي، *تاريخ الدولة العثمانية "التاريخ السياسي والإداري ودراسات تاريخية"*، دار الفكر، عمان- الأردن، ط1، 1433هـ-2012م.

21- عمارة، محمد، *جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام*، دار الشروق، القاهرة، ط2، 1408هـ-1988.

22- قلعجي، قدري، *ثلاثة من أعلام الحرية جمال الدين الأفغاني*، محمد عبده، سعد زغلول، دار الكتاب الغربي، د.ت.

23- المحافظة، علي، *الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798-1914م، الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية*، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987.

24- مصطفى، أحمد عبد الرحيم، *علاقات مصر بتركيا في عهد الخديوي إسماعيل 1863-1879م*، دار المعارف- الإسكندرية، 1967م.

25- المغربي، عبد القادر، *جمال الدين الأفغاني ذكريات وأحاديث*، دائرة المعارف، القاهرة، ط3، د.ت.

26- موسى، سلامة، *غاندي والحركة الهندية*، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2012/8/26.

27- مورو، محمد، *تاريخ مصر الحديث 1798-1952م*، د. ن، د.ت.

28- – الندوي، محمد راشد كمال، *الهند ضد الاستعمار البريطاني وعلاقتها بالإسلام، البعث الإسلامي*، ع8، ج51، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي، جمادى الأول، 1427هـ/يونيو 2006.

29- الوصيفي، علي بن السيد، *الإخوان المسلمون من هم؟! وماذا يريدون؟! دراسة نقدية مختصرة*، دار الفرقان، القاهرة، ط1، 1433هـ-2012م.